

الشعر القصصي أو

شعر الملاحم

للمؤلف: عبد الرزاق حميدة

نص المحاضرة التي ألقاها الأستاذ عبد الرزاق حميدة ، خريج دارالعلوم
وعضو البعثة الذهبية ، بنادي دارالعلوم

سيدى الرئيس أساتذتى وإخوانى الكرام :

إن حديثي اليكم الليلة دائر حول « الشعر القصصي » ، أو شعر الملاحم ، كما سماه بعض علماء المغرب من قبل . وهو موضوع حاولت أن أجد حوله كلاما شافيا في اللغة العربية وكتب الأدب فأعياى البحث ، ولعل سبب ذلك انقطاع الصلة بيني وبين التعمق في دراسة الأدب العربي مدة سبعة أعوام ، أما السبب الذي أعتقد أنه قد فُهم فهو قلة ما كتب في العربية من أبحاث إن كان هناك ما يسمى بحشا - حول « الشعر القصصي » - حول الملاحم . وليس ذلك تقصيرا من ناقدى العرب ، فمؤلا لم يجدوا مادة يتحدثون عنها مترجمة أو موضوعية . وخير من ظفرت به في هذا الباب هو « سليمان البستاني » في مقدمته لترجمته إلياذة هومر . هداني بحثه إلى كثير من المراجع الأجنبية ، فوليت وجهي شطرها ونهلت منها حتى رويت ، وأرجو أن أوفق في أن أعرض عليكم شيئا فيه فائدة ، وفيه جزاء موفر لتكرمكم بتلبية الدعوة لسماع حديثي هذه الليلة . عرفنا هذا النوع من أقسام الشعر عن الناقدين الغربيين الذين يقسمون الشعر أقساما ثلاثة :

أولها الشعر القصصي - أو شعر الملاحم - والملاحمة أو القصيدة القصصية . لا بد فيها من حادثة من حوادث البطولة تكون موضوعا للقصة ، ولا يتحتم أن تكون هذه الحادثة أسطورية أو من نسج الخيال ، بل يمكن أن تكون من حقائق التاريخ أو خرافات الأمم أو قصص الأديان ، يتحدث فيها

الشاعر بلسان أبطالها ، يقص القصص ، ويسرد الوقائع ويزخرف القول ، ويصف عيشة الأبطال ، ويذكر ما أحاط بهم من جو وطبيعة ، وما ساد عصرهم من علم أو فن ، وما سيطر على أزمانهم من عقائد أو أساطير .

وثانيها الشعر الغنائى — وهو ما يعبرون عن منظر ماته بالأنشيد أو الأغاني ويقصدون به الشعر الذى يعبر عن العواطف الشخصية ، من حب وفخر ومن غزل ونسيب ، ويدخلون فيه شعر الحماسة والرثاء ، والمدح والهجاء .

وثالثها : الشعر التمثيلى — أو المسرحيات الشعرية « الدراما » يتحدث فيه الأبطال أنفسهم حوارا أو جدلا ، وخبرا أو إنشاء ، أمرا أو نهيا ، وعذرا أو نذرا . كما يتحدث الناس بعضهم إلى بعض بشئ أنواع الحديث فى الحياة الواقعية المحسوسة

وفيه تبدو الفكرة المراد إبرازها ، أو المغزى الذى يرمى إليه الكاتب . ممثلة على المسرح أمام جمهور المشاهدين ، وتبتدع من أجل ذلك الحوادث ابتداء ، وتنسق تنسيقا يساعد التمثيل على تحسين فضيلة أو تقييح رذيلة ؛ فيكون وقعها ممثلة أثبت فى الذهن ، وأبلغ فى النفس ، وأعمق فى الأثر .

ولا حد بين هذه الأقسام الثلاثة يفصلها فصلا تاما ، أو يحرم على نوع أن يوجد فى ثنايا نوع آخر ؛ بل كثيرا ما يكون تمشيها معا ، واثلا فيها جميعها أو بعضها من مقتضيات الانشاء أو ضرورات التأليف . ففى إياذه هو مر شعر غنائى من أبدع ما يقع عليه القارى ، فى بابه ، وفيها من الشعر التمثيلى ما يعجز كبار شعراء المسرح أن يأتوا بمثله ، وفى مسرحيات شكسبير — وشهرته أنه أعظم شاعر مسرحى فى القديم والحديث — مثل « هملت » كثير من نوع الملاحم يملأ النفس بمقدرته دهشة وإعجابا . أما قدرته على الشعر الغنائى الموسيقى الجليل فهى مضرب الأمثال عند أبناء جنسه ومن يفهمون لغته ، ويتذوقون أدبه وجماله .

هذا الترتيب الذى ذكرناه هنا لأنواع الشعر عند الأفرنج — القصص ثم الغنائى — ثم التمثيلى — هو الترتيب التاريخى لوجودها كما وصلت إلينا ، أما الترتيب

الطبيعى فيقضى أن يكون الشعر الغنائى أو أنواع منه سابقة على الشعر القصصى ؛ فالأناشيد الدينية التى تقال تضرعا أو زلفى إلى الالهة ، أو تحداثا بنعمة ، أو شكرا على معروف لمن ييدهم ملكوت السموات والأرض فى رأى الأقدمين ؛ وقصائد الفخر بالنصر يملها الشعور الوطنى . والرغبة فى تسجيل المجد القومى ، لابد من أن تكون سابقة للنوع القصصى المركب من التثام هذه وغيرها وترتيبها ترتيبا قصصيا ، وخلق وحدة لها ومحور تدور حوله فى خلال القصة .

والذى يعنينا الآن إنما هو الشعر القصصى . وإن الاختلاف فى تعريف الشعر عند العرب والفرنجة ، وهل تقصد منه الموزون المقفى ، أم تتجاوز عن الوزن وعن النقية ، يجعل ميدان الحديث متأثرا تأثرا كبيرا بالمعنيين . فإذا قصدنا الأول ، وحتما الوزن فى الشعر كان المجال أضيق بلا شك . أما التجاوز عن الوزن فإنه يجعلنا فى حل من أن ندخل المقامات ورسالة الغفران فى دائرة الشعر القصصى ، والذى عليه أغلب كتاب الأدب أن الملاحم منظومة .

وهناك اختلاف كذلك فى المقصود من شعر الملاحم ، فمنهم من جعله مقصورا على المنظومات الخيالية القصصية التى تدور حول حوادث عظيمة ، ويكون أبطالها من الآلهة أو من أنصاف الآلهة أو أفذاذ البشر ، أو من البشر خاصة ، ومنهم من أراد به القصص الخيالية أو التى لها سند من التاريخ مادامت فى قالب شعري ، يكون موضوعها أى نوع من أنواع البطولة يأتى فيها البطل بالعظائم ، ويفعل ما لا يستطيع العامة من الناس فعله ، ويعيهم إحدائه . كما فى الملاحم التاريخية أمثال الشاهنامة ، وأرجوزة ابن عبد ربه فى تاريخ « الناصر » وهى فى الجزء الثانى من العقد الفريد .

الالياذة : The Iliad : أما النوع الأول فمثله « الالياذة » وهى أقدم ما عرف من شعر الملاحم ، تنسب إلى « هومر » ، وهى شخصية مختلف الناس فيها فقال أناس بوجودها ، وأنكرها آخرون مدعين أنها مؤلفة من شخصيات يونانية كثيرة العدد كتبت القصة فى أزمان متعددة ، وأجيال متعاقبة ، ثم حفظت هذه المقطوعات ورواها المنشدون والرواة مجتمعة ، وعنى بحفظها المتكسبون

بجموعة، وسواء كان هذا أو ذاك فلا شك فى أن للقصة وحدة، وأنهما متمازجان
الاجزاء متناسقة الانشيد .

هذا الاسم نسبة إلى إليون (ILION) فى آسيا الصغرى، والتي نعرفها نحن
باسم طروادة . وقعت بينها الحرب وبين اليونان ودامت عشر سنوات . أوقد
نار هذه الحرب باريس « Paris » بن فريام « Priam » ملك طروادة عند ما
زار اسبرطة وأغرى ماكتها هيلانة، مثال الجمال وآيته، وجمع الحسن وغايته
أن تترك ما كها وتفر معه ففعلت، فقامت الحرب، وزحفت جيوش اليونان
على طروادة بقيادة أغا ممنون « Agamemnon » حتى وصلت إلى الحاضرة
« إليون » وحاصرتها عشر سنوات انتهت باستيلاء اليونان على المدينة على
يد أخيل Achilles بطل اليونان .

محور القصة هو « غيظ أخيل »، فقد حدث فى إحدى الغارات أن سبي
الجيش اليونانى فثنتين، إحداهما كريس « Chryse » بنت كاهن « أبولون »
وكانت من نصيب أغانمنون . ذهب أبوها ليفتديها فرفض أسرهما حتى تساق
إليه سبية غيرها، فاستنزل أبوها سخط الإله « أبولون » على اليونان فهزموا،
وأخيرا تنازل أغا ممنون عن سبيته ؛ ولكنه استولى مكانها على فتاة أخرى
كانت من نصيب أخيل ، وكاد يقع بينهما القتال ويفتك أخيل به لولا
أن أدركته « أثينا » إلهة الحكمة وصدته عما كان يريد، فاعتزل أخيل القتال وشكا
إلى أمه « تيتيس » إحدى بنات الماء ، التي صعدت إلى السماء لتشكو إلى
« زيوس » Zeus كبيرا لآلهة (المشتري) فوعدها بخذلان اليونان حتى يطيب
أخيل نفسه . وتوالت الهزائم على اليونان وثقل عليهم الخذلان، فأرسلوا إلى
أخيل يسترضونه ليقودهم فأبى، فزاد هيكتور زعيم الطرواد فتكا باليونانيين
وكاد يفرق سمنهم . وقتل فرطقل « Partocle » صديق أخيل ، فلما علم بذلك
ثارت نفسه ، وتقدم للأخذ بثأر صديقه، وبطش بجيش طروادة بطش
الأسود؛ ففروا وتحصنوا فى معقلهم إلا هكتور بن فريام، فقد برز لأخيل
فقتل، وألقيت جثته إلى أبيه ليدفنها .

هذا هو ملخص القصة ، وقد اعتبر فولتير ، ونقاد القرن الثامن عشر في فرنسا هذا النوع وحده جديرا باسم « الملاحم » ، ونفروا ما عداه . أما النوع الثاني ، وهو التاريخي فسيأتى الحديث عنه عند كلامنا على مكان الشعر عند الرومان .

تطور الملاحم في القديم

إن النوع الديني من الملاحم في اليونان هو أقدم ما أوجت به الشياطين إلى أوليائهم من الشعراء ، وقدم هؤلاء لكل من تلاهم منلا في القصائد المتعلقة بالبطولة . وظل الشعر القصصي سائدا طوال أربعة قرون ثم ترك الميدان للشعر الغنائي . ومع ذلك فقد تطور هو أولا ونشأت له فروع . واتسع معناه ، كان في أول الأمر دينيا حربيا ، ثم تحول إلى فلسفة ، وانتقاد وتهكم ، ووجدت منه أنوع لا أثر فيها للبطولة الدينية أو الوثنية . وجاء بعد الإلياذة نوع تعليمي ينسب إلى اليونان في القارة لا في الجزائر ، وأهم من يمثله هو هسيود Hésiode وإليه ينسب نوع آخر هو قصائد (الأنساب) ، وهو نوع تولد من الأناشيد كما خرج الشعر القصصي منها ، بمقتضى التطور الطبيعي للروح التاريخية ، والرغبة في إتمام الأساطير والخرافات ، ووضع أنساب للآلهة وأنصاف الآلهة . ثم جاء بعد ذلك شعراء تقربوا من التاريخ ، وكتبوا قصصا هي أقرب إلى التاريخ الحقيقي منها إلى الشعر القصصي ثم طغى الشعر الغنائي ، وقوى سلطانه ، فدالت دولة الشعر القصصي ، ومن بعده بقليل دالت دولة اليونان .

أما الرومان الذين ورثوا حضارة الإغريق وسيادتهم فلم يكن للملاحمة معنى واضح عندهم ، ولم يكتب شعراؤهم « عملا قوميا » أو قصة وطنية مركبة من مجموعة من الأساطير تركيبا طبيعيا متسلسلا ، أو من الخرافات المركزة حول حادثة خاصة ، أو فكرة معينة تعطي القصة وحدة وانسجاما ، ولم يكن لهم في أوج عظمتهم تقليد خاص في الأوزان الغنائية ، ذلك التقاليد الذي هو شرط من شروط الشعر القصصي يميزه من التاريخ . بل كان ذلك عندهم صناعة واقتنا ، لا أثر اليونان السابقين .

لم تعزز الرومان - كما لم تعزز العرب - كبار الحوادث التي تثير الشاعرية ،

ولأنما أعوزتهم الفسحة من الزمن، والفراغ من العمل مدة القرون الخمسة الأولى لدولتهم، إذ كانوا في شغل بالحروب والسياسة والتشريع والأعمال الاجتماعية، وكان خيالهم فقيراً ولغتهم غليظة خشنة، فاكثفوا بالافتراض والتقليد.

الدرة الثانية في عمدة الملاحم هي الإنياد :

الإنياد «Enéide» مؤلفها فرجيل عاش في القرن الأول قبل المسيح في زمن أكتاف. مات فرجيل قبل أن يتمها، بل أراد أن يتضى عليها. تتبع فيها تاريخ روما كما كتبه Annius وصل فيها إلى نهاية الاتساق والنبيل والركة، وقلد فيها هرمر وثيوكرت. بدت فيها عبقرية الشخصية على أتمها، وكذلك جبه وغرامه بالطبيعة، وعلو أسلوبه إلى أعلى الدرجات.

لم يكن الشعر القصصى، أو النصصى الشعرى، خاصاً باليونان أو الرومان بل كان معروفاً عند معظم الأمم الآرية منذ اجتيازها مراحل البداوة. فعند الإنجليز الملاحمة المعروفة باسم ال Bewulf وعند الأسبان ملحمة «السيد» التي افنيس منها كورنى روايته، وعند الألمان كثير منها مبنى على الأساطير الجرمانية القديمة وأشهرها فاوست، أما العالميان والبرتغال فتد كثير كتاب الملاحم عندهم كثرة عظيمة. أما الشرقيون من الآريين فمعرف من ملاحمهم «مهابهار» الهند، ومنظومة شهودى التركية، «وشاهنامه» لشاعر تركى ملتب بالفردوسى الطويل كتبها أيام السلطان بايزيد، وأما «شاهنامه» الفردوس فهى من أمهات الملاحم التاريخية، بدأها شاعر اسمه الدقيقى، وأتمها الفردوسى ونسبت إليه، وفيها ذكر تاريخ ملوك الفرس منذ الأكَسرة، أما أشهرها على الإطلاق فى العصور الحديثة فهى : «الفردوس الضائع» Paradise Lost لأعظم شاعر إنجليزى بعد شكسبير ذلك هو «جن مائن» John Milton وهى تمثل النوع الدينى المقتبس من الكتب المقدسة، وتعتبر ثلاثة الملاحم فى قصص الملاحم. أما موضوعها فهو «سقوط الإنسان» أو خروج آدم من جنة الخلد لأكله من الشجرة بإغراء حواء. أخذ ملتن هذا الموضوع من الكتاب المقدس، ولكنه طبعه بطابعه الخاص، وأبرز فيه شخصيته واضحة كل البوضوح. قسّمه اثني عشر

كتاباً تبدأ بخلق العالم . وأعظم مواقفها هو إغراء الشيطان لحواء ثم إغرائها
هي لآدم . أما جهنم التي رسمها في كتابه فهي مثال من أمثلة السمو الشعري
الذي لا يجارى ، وكثيراً ما قارن النقاد بها جحيم دانتى وفضلوا الأول على
الثانى . أما رأيه فى المرأة ، وقضاؤه عليها بأنها أقل عقلاً وديناً من الرجل ،
وأنها سبب مصيبتة وطرده من الجنة ؛ ورأيه فى إبليس وثورته ضد الله فهي
آراؤه هو متأثراً بحياته الخاصة . إذ كان ضد النساء ، وضد الملكية فى زمنه .

العرب والقصص الشعري

هذا النوع من الشعر غير موجود فى الأدب العربى الجاهلى بالمعنى الفنى له
تبحث عنه فيعيك البحث ، ولا تظهر منها جهدت بقصة كاملة على أسلوب
الملاحم وطريقتها فى الشعر الأوربى قديمة وحديثة ، هنالك شعر للمديح أو
الفخر فيه إشارات الى قصة حدثت للشاعر أو قبيلته ، والأمر لا يعدو ذلك .
مع أن أيام العرب ومواقفهم وأبطالهم فيها غناء أى غناء للشاعر القصصى .
ولكنهم — كما يرى فريق من الناقدين — غير مستعدين بفطرتهم لإنشاء
هذا النوع من الأدب . أيامهم ومواقفهم من أمثال حرب البسوس ، وداحس
والغبراء ، ويوم بعاث بين الأوس والخزرج ، ويوم ذى قار بين العرب والفرس
وأبطالهم من أمثال : الماهل وكليب ، والحارث بن عباد ، والربيع بن زياد ،
وهانىء بن مسعود ؛ وعقائدهم وأوابدهم وشياطين شعرائهم كلها تعين العقلية
القصصية على خلق جميل وابتداع جذاب ؛ ومن الجائز أن يكون لهم شعر غنائى
— وهو المرحلة الأولى فى طريق الشعر القصصى — خاطبوا به اللات والعزى
ومناة الثالثة الأخرى ، وهبل الأعلى ، ولكنه ضاع فى ثنايا الأجيال لعدم
تبويته أو تناوله ، واشتغال العرب عنه بالمدح والفخر ، وبالنباهى بالنصر ،
والحض على أخذ الثأر . ولكنهم لم يكونوا فى فسحة رافقه تسمح لهم بنسج
القصص ، وحياسة الملاحم على نير معروف أو صبا فى قالب متفق على سبك
القصص فيه ، إذ أن القصص المنظم نوع من الرفاهية فى الأدب يعتمد إليه الكاتب
فى أوقات الفراغ ، وأنى للعربى المحارب كثير الغارات بشيء من هذا الفراغ !

على أنه مع ذلك قد وجد شيء من الشعر القصصى لم يعتمد إليه قائله ، وإنما جاء عفواً فى ثنايا مدح أو فخر ، الأول فى معلقة زهير بن أبى سلى بمدح درم ابن سنان والحارث بن عوف وقد حملا حالة القتلى فى حرب عبس وذبيان ، بدأها بالوقوف على دمنة أم أوفى بحومانة الدراج بعد عشرين حجة ، وقد عرف الدار لآيا بعد توهم ، فلما عرف الدار قال لربعها « ألا انعم صباحاً أيها الربيع واسلم » ثم وصف الطعائن اللآئى « تحملن بالعايا من فوق جرثم » وقد سرن « القنان » (١) عن يمينهن ورفعن الأتباط والكلل الجرا ، ثم ظهرن من السبويان وقطعنه ، ثم ملن فيه وخلفنه وراءهن ، حتى وردن الماء زرقاجماه عند وادى الرسل (٢) فوضعن عصى الحاضر المتخيم .

وفيهن ملهى للطيف ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم
ثم خلاص من هذا إلى مدح الرجلين مقسماً لهما : « انعم السيدان وجدتما على كل حال » لتداركهما عبساً وذبيان بعد ما تقانوا ودقوا بينهم عطر منشم فى حرب عركتهم عرك الرحا بثقالها ، وأشار بعد إلى حصين بن ضمضم الذى أبى أن يقبل الصلح حتى يأخذ بدم أخيه هرم بن ضمضم وفعل .

وكان طوى كشجاعاً على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم

وقال سأنضى حاجتى ثم أتى عدوى بألف من ورائى ملجم

ثم خلاص من هذا إلى الحكم التى ختم بها معلقته

فهذه قصة الصلح والإشارة إلى الحرب لم تكن مقصودة ، ولكنا على كل حال نرى دقة الوصف ، ولطف الإشارة ، وتتابع القصة ، وهى مع ذلك خالية من التفصيل والالمام بدقائق الحوادث .

والثانى . القصص فى ثنايا الفخر ، فى معلقة عمرو بن كلثوم التى يقال إنه أنشأها ارتجالاً فى حضرة عمرو بن هند ، وقد اختصمت بكر وتغلب إليه وهما على أبواب حرب كاد يثيرها ما يروى من أن ناساً من تغلب ، قبيلة عمرو بن كلثوم جاءوا إلى بكر بن وائل يستسقونهم فطاردتهم بكر للحقد الذى كان بينهم ، فرجعوا

فمات منهم سبعون رجلا عطشا . أبى عمرو بن هند أن يحكم بينهم حتى يجعل في وثاقه سبعون رجلا من أشراف بكر . فإن كان الحق لتغلب دفعهم إليها ، وإلا أطلق سراحهم . فلما أصبحوا جاءت تغلب يقودها عمرو بن كلثوم ، وقال الحارث بن حلزة لقومه إنى قد قات خطبة — يريد قصيدته المأدودة من المعلقات — فمن قام بها ظفر بحجته . ورواها ناسا منهم . فلما قاموا بين يديه لم ترضهم ، فحين علم أنه لا يقوم بها أحد مناهه قال لهم والله لا كره أن آتى الملك فيكلمنى من وراء سبعة ستور وينضح أثرى بالماء إذا انصرفت عنه ، وذلك لبرص كان فيه . غير أنى لا أرى أحدا يتوم بها مقامى . وأنا محتمل ذلك لكم . فانطلق حتى أتى الملك فلما نظر إليه عمرو بن كلثوم قال الملك : أهذا يناطقنى وهو لا يطيق صدر راحلة فأجابه الملك حتى أخمه وأنشد الحارث قصيدته :

آذتنا بينها أسماء رب تاويل منه الثواء

وهو من وراء سبعة ستور وهند تسمع ، فلما سمعتها قالت : تالله ما رأيت كالיום قط رجلا يقول مثل هذا الهول يكلم من وراء سبعة ستور ، فقال الملك ارفعوا سترا ، ودنا ، فما زالت تقول ويرفع سترا فسترا حتى صار مع الملك على مجلسه ثم أطعمه من جفنته ، وأمر ألا ينضح أثره بالماء ، وجز نواصى السبعين من بكر ودفعها إلى الحارث ^(١) فأغضب ذلك عمرو بن كلثوم فأنشد قصيدته ، يفتخر ، ويتص أسباب ذلك في معلقته إذ يقول :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليتمينا

ثم يستمر بعد ذلك في فخره بعزة قومه ، ويصف بأسهم في الحرب ومنعهم من يليهم وطعنهم ما تراخى الناس عنهم ، وضربهم بالسيوف إذا اقترب منهم عدوهم في مواقع :

تخال جماجم الأبطال فيها وسوقا بالآما عزير ^(٢) تمينا

ثم ينصرف إلى عمرو بن هند بخطابه :

شرح المعانيات للتبريزي

٢ الاراضي العلية أكثرها الحصى .

بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا وويدا متى كنا لأمك مقتونيا
ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجددينا^(١)

ثم يفتخر بآبائه الذين ورثهم من أمثال مهلهل، وعتاب، وكلثوم جميعاً،
وذا البرة الذى خبر عنه عمرو بن هند وقبله الساعى كليب. ثم يفتخر بموقفهم
يوم خزاز وذى أراطى ويتحدث بعد ذلك إلى بنى بكر قائلاً:

إليكم يا بنى بكر إليكم ألما تعلموا منا اليقيناً

ويصف كتابه وعليها البيض والياب اليماني « وأسيافها يقمن وينحينا »
والخيل الجرد التى تحملهم غداة الروع، ثم يقول إنهم خرجوا وراءهم ييضم
كرام يوقدن غيرتهم ويثرن حميتهم ويختم قصيدته بقوله:

ألا لا يجهلن أحد علينا فجهل فوق جهل الجاهلينا

أما معلقة امرئ القيس ومعلقة عنبرة والحارث بن حنظلة فكلها من قبيل
الشعر القصصى. غير أنها كلها لا تسمو إلى أن تكون قصصاً من نوع الملاحم
لتعدد موضوعات الحديث فيها، ولأن القصص فيها عارض

ثم جاء الإسلام، وتشاغل الناس بالفتوح، وعقل القرآن ألسنتهم ببلاغته
وأذهاهم عن أنفسهم وعن شعرهم فشغلوا به وبدعوته حتى دانت لهم مشارق
الأرض ومغاربها، فلما استقر قرارهم شغلوا بتثبيت دعائم الملك، وتوكيد
أركان الحكم، واستعان خلفاؤهم بالشعر واتخذوهم لسان السياسة التى يريدونها
وأجزلوا لهم العطاء، وانمحي أى أثر للشعر القصصى الحماسى أو الدينى حتى جاء
عصر الترجمة فى أيام المأمون

عندئذ ترجمت الرومانىة واليونانىة

لم يتأثر الأدب العربى بالأدب اليونانى مباشرة فى عصر الترجمة لأن هذا
الآخر لم ينقل إلى العرب، ولم يعرف عندهم، وذلك لأنه أدب أمة وثنية تكثر
فيه الآلهة وتعدد، وهو يتحدث عن عادات واعتقادات لا يسيغها العرب، وهو

١ يقال إن علقمة هو الذى أزل تغلب الجزيرة

كألى أيضاً إذا قسناه بالعلوم الأخرى التى عنى الخلفاء بترجمتها كالطب والجغرافيا والمنطق؛ ولم يكن المترجمون من العرب لهم القدرة على نقل الالباب مثلاً إلى لغتهم بل كانوا من السريان الذين لم تبلغ إجادتهم للغة العربية حداً يجعلهم يقدمون على تلك الترجمة شعراً، فاكثفوا بنقلها إلى لغتهم السريانية. وهذا السبب نفسه هو الذى أدى إلى ترجمة الآداب الهندية والفارسية لأن المترجمين كانوا من كبار كتاب العرب أو شعرائهم كبن المقفع.

كان العصر الذى نحن بصدده من أكثر العصور امتلاءً بالشعراء المجيدين وبالرواة النابهين من أمثال الأصمعي وحماد وخلف، وكانت الشعوبية على أشدها أفلم يكن ذلك حافزاً للشعراء من البطون العربية أن يتغنوا بمجد أسلافهم قصصاً أو يتحدثوا عن فتوحهم ومغازيهم حديثاً مسلسلًا منسجماً؟ إنهم لو انصرفوا إلى هذا النحو من الشعر لملأوا لنا الآداب بنفائس منه وذخائر ولكنهم كانوا عنه في شغل بشعر المدح والوصف واللهو ومجالس الأنس والسرور.

وليس معنى ذلك أن الآداب العربي صفر من « الملاحم » مقفر من هذا الضرب من الشعر ذى المكانة الممتازة في الآداب الآرية، فهناك نوع من القصص الممتازة بفكرتها لا بأسلوبها قريبة كل القرب من شعر الملاحم؛ فإذا تجاوزنا عن ضرورة النظم — وهو ما أراه — زادت ثروتنا من هذا النوع، واستطعنا أن نلحق المقامات ورسالة الغفران بالشعر القصصى، أما قيد النظم فهو مما يجعل الميدان أضيق. هذه القصص هي الزير سالم وعنترة بن شداد، وأبو زيد الهلالي، والبراق^(١)، ثم الموالد النبوية التى تمثل من الملاحم نوعاً قائماً بذاته، ودرته الفريدة في الآداب الأجنبية هي « الفردوس الضائع » لما تلى التى سبقت الإشارة إليها، ولأتحدث عن قصة عنترة الآن:

قصة عنترة:

لها أصل من التاريخ، تذكر لنا نشأة عنترة في حادثة خرافية، وتصف بطولته وكرمه ونخبه، وتعرض صورة جذابة لحياة البادية وعادات الأعراب

١ التى بنيت عليها القصة المشهورة « ليلي بنت الصحران ».

فيها من شعر وغزو وأخذ بالنار وفخر بحماية الجائر، ثم تقع الحصى وتبين عترة وغيره من قرسان العرب، ويذهب بعد الانتصار عليهم إلى مصر والقسطنطينية فيخلد لنفسه ذكرا سائرا يبطر له وشجاعته، ثم يموت كما مات سليمان عليه السلام - ميتة تخيل إلى رائيه من الأعداء أنه ما زال حيا، وذلك ليصد جيشا مهاجما، وبعد أن يتقهقر جند، يخر سائطا (١) وهي ميتة أشبه بميتة سليمان بن داود عليهما السلام في سورة سبأ: «قال تعالى: «فلما قضيت عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته، فلما خربت الجح أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين».

بدأت القصة في صدر الاسلام في حروب الحجاج سنة ٧٧ من الهجرة، في الواقعة التي قتل فيها عتاب بن ورقاء. فقد ذكر ابن الأثير أن عتابا سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ثم يقول: «أين القصاص؟» فلم يجبه أحد، فيقول: «أين من يروى شعر عترة؟» فلم يجبه أحد. فكانوا يروون شعره للتحميس، ثم جمعت أخباره وأشعاره، وتناقلها الناس رواية عن الأصمعي حتى جمعت بمصر. وقد زادت واتسعت، في أواخر القرن الرابع للهجرة في زمن الخليفة العزيز بالله الفاطمي، جمعها رجل اسمه الشيخ يوسف بن إسماعيل ليصرف الناس عن التحدث بريبة حدثت في بيت العزيز، وكان الشيخ يونس هذا واسع الرواية، عالما بأخبار العرب، كثير التوادد والاحاديث، وكان قد أخذ روايات شتى عن أبي عبيدة، ونجد بن هشام، وجهينة الأخبار، والأصمعي وغيرهم من الرواة، فأخذ يكتب قصة عترة ويوزعها في الناس فأعجبوا بها وشغلوا عن سواها، وقد قسمها اثنين وسبعين جزءا. ينتهى كل واحد منها بنهاية تبحث في النفس أشد الشوق إلى ما تلاها، وقد أثبت فيها ما ورد من أشعار العرب المذكورين، ولكن تداول النساخين أفسد روايتها. أما الخوالد فهي أشبه بالفردوس الضائع موضوعا، ولكن شتان بين النوين أحدهما مطرز موشى، والآخر قديم خالق رث، وهو الذى لبسه القصة

(١) تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الاول لجورجي زيدان

في الموالد النبوية : هذه الموالد تتحدث كلها عن آدم في الجنة وخلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى ، وزواجه منها على صداق قدره عشرون صلاة على محمد ﷺ . ثم يدخل الشيطان إلى الجنة خلصة ، ويغري آدم كما حدث القرآن : « قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ثم يهبطان إلى الأرض ويعمرانها وتتسلسل منهما الأنبياء والرسل حتى إبراهيم واسماعيل ، ثم إلى محمد وعبدنان ، ثم إلى عبدالمطلب وعبدالله ، ونور محمد في أثناء ذلك ينقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام النقية حتى يستنر في آمنة بنت وهب تسعة أشهر ويبرز بعدها للوجود هدى ورحمة للعالمين .

ذلك هو يحمل الموضوع الذي تدور حوله الموالد ، وهو شديد الشبه بموضوع ملتن : كلاهما مقتبس من الدين ، وكلاهما يدور حول خلق العالم وزلة الإنسان الأول في الجنة بإغواء الشيطان .

والموالد لها قالب خاص ، وقصصها دائر بين النثر والشعر . والنثر هناك مسجوع سجعاً مزدوجاً من نوع يكاد يكون خاصاً بالموالد ، ذلك هو الانقصار على اللام أو الميم في واحدة ، ثم في الياء المشددة والتاء في التي تليها وهكذا ، ثم يتبدى كل قصيدة بصيغة خاصة تلائم النثر السابق في سجعه : مثلاً

« و خلقت حواء من ضلع آدم اليسرى وهو نائم يامعشر الآثام ، وذلك لعدم الآلام بالكلية ، فلما استيقظ ورآها كأنها البدر التمام . مديده إليها فمغنته الملائكة الكروية . حتى يؤدى مهرها ، فقال وما مهرها يا معشر الملائكة الكرام ، قالوا أن تصلي على محمد عشرين عديدة . فأدى المهر وتزوج بها وشهد على العقد كبار الملائكة ، أما الصيغة التي تسبق كل قصيدة فهي في مثل هذا الأزواج :

اللهم عطر قبره بالتعظيم والتحية ، واغفر لنا ذنوبنا والآثام .

وهناك في العصر الحديث ملاحم أو أشباه الملاحم ، كملحمة « أحمد مجرم » حول تاريخ الرسول ، وملحمة حافظ في قصيدته المعروفة بالعمرية ، وملحمة المرحوم الشيخ محمد عبدالمطلب المعروفة « بالعلوية » وكلها من النوع

النارنجى ، وكوصف حرب اليرنان والترك للرحوم شوقى بك وهى من نوع
«البطولة الحربية» ، وقد حاول بعضهم محاولات أخرى مثيرة فى ثنايا دواوينهم
ولكنها ليست بذات بال .

وبعد فإن تقصير العرب فى إنتاج الشعر الفنى لا يحط من قدرهم ، فإن لكل أمة
ميزة ولكل شعب طابعا فى التفكير والأدب ، ولعل عصرنا هذا أكثر
العصور ملاءمة للإنتاج فى هذا النوع بعد أن عرفنا مركزه فى الآداب الآرية
ولثبت للشعوبيين من الأوربيين أننا ذوو خيال وقدرة على الابتداع والإشياء .

عبد الرزاق محمده

